سناء شعلان و "حــدث ذات جــدار"

قصٌّ مُتقنٌ ... لحكايات جدار لا يخجل من نفسه ..

بقلم:فرج مجاهد عبد الوهاب/ مصر

من أبرز شروط التناول الإبداعي الواقعي، أن يكون الواقع نفسه، وليس جزءا منه وفي مثل هذا التناول يرتقي الإبداع الحاضن للواقعية الحياتية المعيشة، وحتى يكون المنتج أكثر حرصا علي واقعيته لابد أن يستند إلي فعل حدث، يفرز إحالات متعددة إن توالت من الممكن أن يفرز مصطلحا خاصا به، تنمو من خلاله أنماط تعبيرية مختلفة وعلي مستوي السرد النثري والألق الشعري.. كيف؟ والحدث فصل إجرامي تعسفي حاقد، لا هدف منه غير فصل الجسد الواحد إلي جسدين، يفصل بينهما جدار فاصل وعازل، بناه الكيان الصهيوني في الضفة الغربية، وفي أماكن متعددة لمنع دخول سكان الضفة إلي المستعمرات الصهيونية القريبة من الخط الأخضر.

مكونا من سياجات، وطرق، ودوريات، وأسوار إسمنتية.

هذا الجدار الحقود ومنذ بداية بنائه عام 2002م في ظل انتفاضة الأقصى، وحتى الانتهاء منه عام 2006م وقد بلغ طوله 402 كم يمرُّ في مسار متعرج يحيط بمعظم أراضي الضفة، وفي أماكن معينة، مثل مدينة "قلقيلية" يشكل سداً حاجزاً لأية مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريبا الجدار من جهاتها جميعا.

الجدار الصامت علي جرائمه شكل محورا جديا من محاور الإبداع، أضيف إلي أشكال محاور النضال الفلسطيني، وأمسى مادة مُضافة إلي مواد الأدب المقاوم، مُفرزا كثيرا من القصص والحكايات التي سّجلتها أقلام المبدعين الفلسطينيين داخل الأرض وقد خنقهم حصار الجدار ومنعهم الدخول أو العبور لرؤية الأهل في الطرف الثاني من الجدار .

هذه الحكايات المأساوية, والقصص المرعبة التي تجعل الحجر القاسي والاسمنت الأصم يبكي في داخله احتجاجا واشمئزازا وقرفا من وجوده غير المشروع إنسانيا ودوليا.

بعض الحكايات المؤلمة التي تتكرر يوميا, ويذهب ضحيتها إخوتنا الفلسطينيون دون ذنب اقترفوه, شكلت معمار قصص المجموعة المسماة "حدث ذات جدار" والصادرة في عمان 2016م والتي أبدعت صياغتا الأديبة الأردنية ذات الأصول الفلسطينية "د/سناء شعلان" التي تداخلت بحساسية الإبداع, والشعور الوطني, والانتماء الأصيل لأهلها وأرضها المغتصبة في ليالي الغدر والعدوان, ونقلتها إلي الفضاء القصصي واقعا مأساويا يُدين كل من وافق علي بناء الجدار وأقر وجوده, سراً أو علناً .

المجموعة ثلاث عشر قصة قصيرة خصصت منها إحدى عشر قصة انفردت بالحديث عن الحكايات المؤلمة والجرائم المخزنة التي أفرزها ذلك الجدار الظالم.

في القصة الأولي "وبكي الجدار" حكاية الطفلين نور وابنة عمه نور أيضا وقد ولدا في وقت واحد أطلقت الجدة عليهما اسما واحداً, نشأ معا حتى اضطرت نور إلي دخولها المستشفي برفقة جدتها, وطال وقت مكوثها فبني الجدار ومُنعت نور وجدّتها من العودة إلي بيت الأهل مما جعل نور يعيش حالة قلق وشوق لاسيما أن البيتين غير بعيدين عن الجدار "لم يستطع أن يفارق أمله في أن يسمع صوتها يرد علي ندائه اليومي من خلف الجدار الذي لازمه الوقت جله, وفكر في أن يلفت نظرها بإطلاق طائرته الورقية إلي اعلي الجهات, لكن الجنود الصهاينة صادروا طائرته وأعدموها والجدار هو الذي كان يعرف أين يختبئ نور من الليل, هناك كان الجدار يبكي بحرقة علي طفلين صغيرين كل منهما يحمل مسمي علي ناحية مختلفة من جسده الصلد البارد. (ص 19).

وفي قصة "المقبرة" حكاية الحاجة رشيدة أم الشهداء التي اغتصبت أرضها واقتلعت أشجارها من أجل بناء الجدار لتبقي وحيدة في المقبرة "المقبرة هي آخر ما تبقي لها من عالمها المتواري قهرا خلف الجدار وحيدة لا تملك سوي شجاعتها وإصرارها علي البقاء مع فأسها المخلوع جانبا تتأبط مقبضها الخشبي, تحكم ربط غطاء رأسها وتحزمه بأطراف ثوبها وتخطو أول خطوتها نحو الجدار, تقصد أن تنهال بفأسها عليه, تقترب أكثر من جنود العدو الذين يهرعون بعيدا من وجه امرأة عجوز تحمل فأسها وغضبها وانتقامها المستعر, وخلفها أجساد تجرّ أكفانها, وتحمل فؤوسا مهددة بها, وهي تكاد تنقض علي الجدار, وفي الأفق تلوح المقبرة بقبور مفتوحة قد غادرها الشهداء إكراما لدموع الحاجة رشيدة بنية مساعدتها في تحطيم الجدار. (ص 22)

وفي "حالة أمومة" الأم المصابة بسرطان الثدي تذهب للمعالجة خارج فلسطين وزوجها مسجون الذي لا يعرف مرضها وأنها سافرت مع والدها كانت تحلم بالعودة إلي بيتها كي تضم صغيرها إلي صدرها ولا تعلم أن بيتها سرق وشقيقات زوجها توزعن علي بيوت الأقارب بعد تحويل أرضهم إلي مساحة تحتضن الجدار, حاولت العودة فلم تفلح كانت فرصتها الوحيدة للقاء ابنها عبر الحصول علي تصريح زيارة حصلت عليه بشق النفس سريعا ما انتهي وقت الزيارة ورفض العدو منحها تصريحا آخر.

"في المساء عبرت الجدار رغم أنوف الجنود, لم تكن تسعي حية علي قدمها عندما عبرته, بل كانت جثة هامدة مُخرقة بالرصاص, وموصومة بجريمة التخريب, رموها جانبا, وكفّ يدها مُتخشبة علي ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بأن تُرضع ابنها منه ولو لمرة واحدة في حياتها المهدورة علي بوابة الجدار العازل". (ص 28)

وفي "الصديق السري" حكاية الطفل المعاق المولود في شفة أرنوبية عرف أنه يستطيع التخلص منها بعملية جراحية خارج فلسطين, ولكن العملية بقيت حلما مؤجلا بسبب الجدار, هذه الشفة جعلته يصادق الناي الخشبي الذي صنعه له جدّه من زمن طويل وأصبح صديقه الوحيد.

جزء من الجدار كان أسلاكاً شائكة تحت حراسة مشددة وقد اعتاد أن يتلصص علي المستعمرة من باب الشهوة في كسر إسار الجدار لم يكن يعلم أن عينين ترقبانه منذ أيام طويلة, ولم يتخيل أن تسلكه لبضع خطوات إلي داخل المستعمرة تجعل اليدين الصغيرتين تقبضان عليه, كان فتي في مثل سنه, صهيوني صغير يعيش في نور الشمس أما هو فيعيش قسراً في ظل جدار ظالم, نهضت بينهما صداقة منحته صديقا سريا لا يخجل من أن يحدق في شفته الأرنوبية المشوهة راحا يجريان ويرمحان في الحديقة ولكن هل يقبل الجنود الصهاينة مثل هذه الصداقة؟

"وينطلق سعير الطلقات لتستقر في بطن الطفل الفلسطيني وجثا علي الأرض مهدوما وعيناه تحدقان في صديقه الصهيوني الذي رفع عقيرته برجاء موصول للبنادق بأن تكف, يلقي بنفسه علي جسد صديقه ليشاركه بتلقي الرصاصات الواغلة في جسديهما دون رحمة" (ص 24)

قصة في منتهي الإيقاع الطفولي الإنساني الذي لا يعترف بمثل هذه الفواصل المدمرة.

وفي قصة "شمس ومطر علي جدار واحد" قصة المجندة الإسرائيلية القادمة من هنغاريا وتعجب بشاب فلسطيني يعبر أمامها كل يوم بقصد العمل وهي تشعر أن كل شيء في هذه البوابة يُشعرها بأنا في جهنم, فهي تفصل بين عالمين مشتعلين, وهي حارسة عليها دون معني لوجودها, وحده ذلك الشاب الفلسطيني هو من يُشعرها بدفء مكلل بالمطر كلما مرّ بالقرب منها.

هذا الصباح استيقظت من نومها وهي تتمتم بجملة أحبك ترددها وهي في دربها إلي البوابة المضطربة التي تشير إلي مشكلة ما, من خلف جموع الجنود كانت تبزغ أجساد مسجاة علي الأرض, وكلاب بوليسية شرسة تنهشها, زملاؤها الجنود قالوا: إنهم عمال فلسطينيون مخربون, هازئة بكل جبروت, أول ما صفع خدها وأشعرها بالصقيع, تكومت إلي جانبه دون أن تجرؤ أن تدفن رأسه في حضنها ولو لمرة واحدة في حياتها, كانت مغمورة بظل الجدار العازل, حيث العفونة والظلام والكآبة والظلم (ص 39).

في قصة "الغروب لا يأتي سرا" (ص 61) حيث القائد الصهيوني الذي يخاف من الدم ويفزع منه أشد الفزع علي الرّغم من أنه ترأس أكثر من عملية إبادة جماعية للفلسطينيين, أما الآخر فإن يخشي غروب الشمس, فيشعر أن الفضاء من حوله يعج بالأرواح الشريرة التي تطارده بمصائدها النارية وتسعي لخطف أرواح أبنائه لتجرها إلي الجحيم.

يتلبسه هذا الإحساس الذي يجعله يظن بأن المرأة الفلسطينية التي تجر ستة أطفال وتحمل في بطنها لحما يمور بجنين قد وجد لذة في معاكستها فطلب منها الانتظار علي البوابة لإذلالها ولكنها رفضت هيمنته فجرت أطفالها ومضت لتعود من حيث أتت فاشتعلت نيران الغضب في صدره وأطلق رصاصات نزقة خرقت جسدها وأجساد بنيها الذين تكوموا علي الأرض غارقين في بركة دم حار, منذ هذه الواقعة وكلما حل الليل يتخيل أن أولادها سيأتون لينتقموا من زوجته وأولاده الصغار ابنتي راحيل تخاف الموت والقبور أحبها أكثر من البشر لن يقتلها أحدا غادر غرفته حاملا مدفعه الرشاش وتوجه إلي المطبخ كانت زوجته الحامل وطفليه متحلقين علي مائدة العشاء, يُشبع دهشتهم بلا مبالاة ويشرع يُخرقهم برصاصات مدفعه مبتدئا بابنته راحيل التي تخاف الموت والقبور ويحبها أكثر من البشر أجمعين وعينا المرأة الفلسطينية القتيلة تقدح شررا وهو يصرخ بهستيرية: هؤلاء زوجتي وطفلي أنا أحبهم, لن يقتلهم أحد سواي, هيا اغربي عن وجهي أيتها المرأة الملعونة (ص 65).

أما في قصة "ما قاله الجدار" (ص 71) تضعنا المبدعة أمام اثني عشر قصة مرهفة الحس والإحساس, منتمية في شكلها التناولي إلي فن القصة القصيرة جداً المستوعبة لأركانها, والحاضنة لعناصرها الاصطلاحية من حيث المفارقة والحالة والإحالة أما موضوعها فلم يخرج عن إطار حكايات ذلك الجدار ولكن بأسلوب مقتضب ومختزل وقد حملت كل قصة عنوانها الدال بشكل تلقائي علي مضمونها وقد توالت العنوانات علي الشكل التالي:

1. السّجان مسجون أيضا.
2. قبر الرمثاوي لا يُضام.
3. لا قصة حب للجدار العازل.
4. بوابة واحدة لا تكفي.
5. لا قانون ضد الأقدام العائدة.
6. الخيل الأصيلة تعود دائما إلي أهلها.
7. الموتى لا يرحلون.
8. طائر الفينيقي حقيقة لا أسطورة.
9. المجانين ضد الجنود.
10. الموت يساوي بين الأشياء.
11. ثورة العصافير خارج التاريخ.
12. علي الجدار أن يرحل في النهاية.

ومن فضاء القصة الأولي: السجان مسجون أيضا (ص 71): نلمح ذلك الومض القصصي القائم علي الدهشة والصور المتحركة.

"كان يبدو العمل له ممتعا, ومسليا, فليس هناك متعة أكثر من أن يقف علي بوابة يراقب منها الخارج والداخل, ويمارس عبرها متعته السادية في تعذيب الناس والتنكيل بهم, استمتع سنوات طويلة بهذه اللعبة العمل, إذ كان يظن انه السّجان المعذب للفلسطينيين, ولكن عندما أيقن انه لا فرق كبير بين أن يُسجن المرء خلف الجدار أو أمامه أو في بوابته, انتحر بجرعة إضافية من المخدرات".

أنها صورة حقيقية أيضا لما كان يعانون منه الجنود الصهاينة من صراع نفسي دفع بهذا الجندي إلي الانتحار بجرعة إضافية من المخدرات وقصة لا تختلف كثيرا من ذلك الجندي الذي يصاحبه الرعب والخوف من الليل.

لم تخل قصة من قصص المجموعة عن تصوير عمق المأساة التي خلفها الجدار الفاصل الذي عزل الإخوة والأزواج والأسر والبيوت عن بعضها ليسجل قصصه وحكاياته المريرة التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني الصابر, والمتحمل, والمناضل في الوقت نفسه حتى القصتين اللتين كتبتهما المبدعة بعيدا عن الجدار وعنوانهما:

1. البوصلة والأظافر وأفول المطر. (ص 83)

2. خرافية أبو عرب (ص 91)

كانتا نابضتان من الواقع الذي أفرز القصتين علي اختلاف موضوعهما اللذين لم يبتعدوا عن حكاية الأسر وهاشم والحاجة وطفة ورواية الجدة لحكاية أبي عرب الذي حوّلتها احدي المذيعات إلي برنامج أسبوعي جماهيري بعنوان "خرافية أبو عرب" تتحدث في كل حلقة من حلقاته عن شهداء الثورة الفلسطينية وأبطالها وجهادها وشهدائها لتكتمل محاور المجموعة المكتوبة بحرقة النفس ومرارة الروح وصدق التناول والدخول بعمق في حكايات الفلسطينيين التي أفرزها الجدار لتتشكل ملامح أسلوب أدبي يمكن أن يُسمي بمرور الأيام أدب الجدار العازل لأنه مازال موجودا ومازال وجوده يفرز كل يوم حكاية من حكايات الحقد والعذاب والإحساس بالاضطهاد المسكوت عنه بكل وقاحة.

أن القصص مثلما صورت معاناة الشعب الفلسطيني صورت بالمقابل معاناة بعض الجنود الصهاينة وهي تتوغل في أعماقهم ولكن من دون أن يغيروا معتقداتهم التي تدربوا عليها بكل قسوة وعنف, ولذلك لا خيار أمام من يؤنبه ضميره غير الانتحار وهذا ما يشهده المجتمع الإسرائيلي الغاصب والمحتل.

لقد أضافت "سناء شعلان" إلي الأدب الفلسطيني المقاوم إضافات جديدة كما أنها أرسلت في ذلك الأدب أول لبنة في نهوض محورٍ جديد يُضاف إلي أدب المقاومة وهو أدب الجدار العازل.